10

النجدة !

قال سندباد :

وقعتُ في أيدي النسانيس، بعد أن قتلتُ منهم طائفة، وانتصرت عليهم في أكثر من معركة؛ فهل أفلت من هذا الأسر وأنجو بروحي أم تكون آخرتي على أيديهم، كما كانت آخرة أبي شهبندر؟

ورأيتني محمولًا بينهم مُقيَّد الحركة لا أستطيع تدبيرًا ولا حيلة، فيئست من حياتي وأيقنت أنها الآخرة! وفجأةً رأيت عقدهم ينتثر وجمعهم يتفرق؛ ورأيتني أسقط على الأرض سقطةً ترضُّ العظم . . .

ولم أعرف في أول الأمر سبب ما حدث، ولكني لم أكد أقف على قدميَّ حتى خمَّنت تخمينًا، فقد رأيت نسناسًا منهم مجندلًا على الأرض وفى ظهره سهمٌ مرشوق، فعرفت أن أحدًا رماه من ورائه بذلك السهم فأصابه، فخافوا وتفرقوا؛ ولكن من الذي رماه فأنقذني من الموت في اللحظة الأخيرة ؟ أهو صديقي أبو الإسعاد ؟ ولكنه كسير مرضوض العظم لا يستطيع أن يقف على قدمين؛ أم هو رفيقي باقر؟ ولكنه جريح ينزف الدم من صدره في المغارة؛ فمن يكون ذلك الرامي ؟

وتلفَّتُّ حواليَّ قلقًا حيران، وقد خطر لي أنَّ رامي السهم نسناسٌ من النسانيس بينه وبين سائرهم عداوة، كما تكون العداوات بين الناس بعضهم وبعض؛ وربما رآهم ذلك النسناس يحملونني

ويذهبون بي فطمع في أن أكون من نصيبه دونهم، فرماهم بسهمه ليأخذني؛ فلا نجاة لي من الموت على الحالين !

كذلك قلتُ لنفسي وأنا أنظر حواليَّ في خوف وقلق وحيرة؛ ولكني لم ألبث أن عدت إلى الاطمئنان حين رأيت على البعد شبح إنسان يقترب ولم أتبين صورته من أول نظرة، ولكني لم ألبث أن عرفته؛ إنه شيخ القافلة . . .

يا للحظ السعيد!

إذن فقد نجا الشيخ كما نجونا، وقذفتْه الأمواج كما قذفتنا على ساحل هذه الجزيرة، فجاء في اللحظة الأخيرة لينقذني !

لك الحمد يا ربي!

وأسرعت إلى الشيخ وقلبي يخفق بين ضلوعي فرحًا، فارتميت بين ذراعيه كما يرتمي الطفل بين ذراعي أبيه، فاعتنقني وقبَّل جبيني وخديَّ، ثم سألني : هل نجا معك أحد من أصحابنا يا سندباد !

قلت : نعم، أبو الإسعاد، وباقر؛ ألم ترهما ؟

ثم قُدته إلى أبي الإسعاد، فساعدناه على القيام ومضينا به إلى المغارة، حيث كان باقر راقدًا وقد غُشي عليه من كثرة ما نزف من دمه؛ فأخرج الشيخ من صدره زجاجةً صغيرةً فأنشقه منها، فأفاق من غشيته، ثم دار بعينيه فيما حوله وهو يسأل : أين أنا ؟

قال الشيخ : أنت معنا يا باقر؛ فماذا حدث ؟

قلت وقد عاد إليَّ الشعور بالقلق : دعه بالله يا سيدى، لا تسأله فإن في صدره جرحًا عميقًا، وليس من الخير أن ترهقه بكثرة الحديث!

وتذكرتُ في تلك اللحظة ما كنت أريده قبل أن يفاجئني النسانيس، فهببتُ واقفًا؛ ولكن الشيخ أمسكني قائلًا : أين تذهب يا سندباد ؟

قلت : أريد ماءً لأغسل له جرحه . . .

قال الشيخ : لسنا في حاجة إلى ماء، معي بعض السوائل المطهِّرة.

ثم مد يده إلى صدره فأخرج زجاجةً، وزجاجةً أخرى، ثم زجاجةً ثالثة؛ ضحكت قائلًا : أرى في جيبك يا سيدنا صيدليةً كاملة . . .

قال : نعم؛ ولابد لكل رحَّالة من صيدلية كاملة . . .

ثم شمَّ بعض الزجاجات وقطر منها سائلًا على جرح باقر، ثم فك عمامته وأخذ يمسح بطرفها ما حول الجرح من الدم المتجمد، وهو يتحسس بأصبعه في الظلام وضع الإصابة؛ فقال أبو الإسعاد : لو كان معنا الساعة مصباح كهربيّ!

فضربت يدى في جيبي أتحسس مصباحي، ثم أخرجته فنوَّرتُ به ،فصاح الشيخ فرحًا : هذا حسن!

ثم أخذ يفحص عن الجرح ويجعل عليه بعض العقاقير، ثم حشاه بجزء من لوثة العمامة، ثم ربطه، ثم أرقد الجريح على أرض المغارة وقال له : أراك بخير يا باقر، ولكن عليك أن تلزم مكانك فلا تتحرك حتى يلتئم الجرح !

ثم نظر إلى قائلًا : أطفئ مصباحك يا سندباد، فليس من المصلحة أن يبقى منيرًا؛ ثم أخبرني بكل ما حدث بينكم وبين النسانيس !

قال أبو الإسعاد : لقد قتل منهم سندباد عددًا غير قليل!

قال الشيخ : لقد خمَّنتُ هذا حين رأيت بعض قتلاهم، ولكن كيف أصابوك وأصابوا باقرًا معك يا أبا الإسعاد ؟

قال أبو الإسعاد : بل أصابوا باقرًا وحده أما أنا فقد وقعتُ فانكسرت رجلي ولم يصبني أحدٌ منهم . . .

وشعرتُ بوخز الضمير في تلك اللحظة، وهممتُ بأن أعترف للشيخ؛ ولكني خشيت أن يسمع باقر فيتألم، فتزداد حالته سوءًا؛ فسكتُّ.

وسكت الشيخ وأبو الإسعاد مثلي؛ فقد أحسا في تلك اللحظة خطرًا يقترب؛ إذا كانت فرقة من النسانيس على باب المغارة تتهيأ لاقتحامها . . .

لم نلبث أن سمعنا وقع أقدام فعرفنا أن بعض النسانيس قد دخلوا ..

ورأينا الشَّرَّ يقترب منا ونحن محصورون في تلك المغارة المظلمة لا نملك دفاعًا عن أنفسنا. . .

وظلت الأصوات تقترب حتى لم يبق بيننا وبينهم إلا القليل، ونحن في حيرة من أمرنا، لا ندرى كيف ندفع عن أنفسنا، ومعنا جريحان لا يستطيعان المقاومة ولا الفرار، ولكن الأصوات لم تلبث أن هدأت، كأنما بدا للنسانيس أن يعودوا من حيث أتوا؛ وقوي هذا الظن في نفسي حين طال الصمت، فرأيتني أضع يدي في جيبي وأخرج مصباحي فأشعله وأرسل نوره؛ فلم أكد أنظر حتى

امتلأت نفسي ذعرًا؛ إذ رأيت بضعة نسانيس قد أسندوا ظهروهم إلى حائط المغارة صامتين، ينتظرون أن نتحرك حركةً يعرفون بها مكاننا؛ فلم يكد نور المصباح يقع على وجوههم حتى صرخوا، فارتعشت يدي وسقط منها المصباح على الأرض . . .

وسمعت في تلك اللحظة حركةً عنيفة، كأن جيشًا جمَّ العدد يهجم علينا، فانهارت عزيمتي وأيقنت بالموت؛ ولكني لم ألبث أن رأيت المصباح المُلقى على الأرض يرتفع ويرسل شعاعه مرةً أخرى إلى بعيد فما كان أشد دهشتي إذ رأيت النسانيس يثبون نحو الباب هاربين . . .

وكان الشيخ هو الذي التقط المصباح حين سقط من يدي وأرسل شعاعه إليهم، فلما رآهم يتواثبون هاربين نظر إليَّ ضاحكًا وهو يقول :

اتبعني، لندركهم قبل أن يفرُّوا !

واندفع نحو باب المغارة واندفعتُ وراءه، ولكني وقعت متعثِّرًا في جسد نسناس منهم، وكان قد وقع على الأرض فداسوه وانطلقوا هاربين، لا يفكر أحد منهم إلا في نفسه؛ وأحس الشيخ بوقعتي فهتف بي : انهض، انظر في ضوء المصباح لئلا تقع وقعةً أخرى !

وكان وراء المغارة فرقة أخرى من النسانيس ينتظرون أصحابهم فلم يكادوا يرونهم قادمين عليهم مرعوبين حنى فروا مرعوبين مثلهم، ونحن من ورائهم جميعًا . . .

ورأيت سهمي وقوسي على الأرض عند باب المغارة، فالتقطتهما وصوبتُ إليهم سهمًا، ووتَّر الشيخ قوسه مثلي وصوَّب، فسقط اثنان منهم قتيلين، ثم سقط اثنان آخران؛ فأخذوا يجدُّون في الهرب ونحن نجدُّ وراءهم في المطاردة . . .